

التاريخ في سير أبطاله

محمد شريف باشا

كان شريف في عصره رجلاً اجتمعت فيه الرجال
وكانت مواقفه تسمى البطولة وتخلق الأبطال

للأستاذ محمود الخفيف

—•—•—•—



سأقت الأقدار ولاية العهد لإسماعيل فاستبشر الناس وارتقبوا
عهد هذا الأمير الذي ذاع من صفاته فيهم ما حبه إليهم ، وكانوا
قد علموا أنه من ذوى البهاة والحزم وبخاصة في شؤون المال !
ولم يطل رقب الناس ، فقد آل إليه الأمر عام ١٨٦٣ م

وراحت مصر تستقبل طوراً من أطوار تاريخها ، بحار أشد
الحيرة ماذا نسميه وبأى الصفات نعتة .. طوراً كان غريباً حقاً ،
ترك غرابته العقول في دهشة شديدة وتكلف من يريد الإنصاف
في درسه عسراً شديداً

ما برحت فرنسا وإنجلترا تراقبان الحوادث في وادى النيل ؛
أما فرنسا فكانت لا تني تعمل على أن تزيد نفوذها الأدبي في مصر ،

ذلك النفوذ الذي وضعت أساسه حملتها في هذه البلاد والذي ما فتئ
يتزايد ويعظم في عهد محمد علي ، وها هو ذا في عهد إسماعيل قد بلغ
غاياته حينما اتصل في عهد البحران واستطاع ديلبس أن يجري بينهما
تلك القناة التي سوف تغير مجرى تاريخ هذا الوادى .. وأما إنجلترا
فكانت على سياستها تحول دون ظهور قوة في مصر ، وقد
استراحت من محمد علي وراحت اليوم تقف في وجه حفيده ومحرص
على أن يظل خاضعاً للخليفة ، ولما التقى البحران أصبح مهما متجهماً
إلى السيطرة على مصر لتسيطر على القناة

وكان شريف من رجال هذا الطور في الصف الأول ولكن
كان ذلك من الوجهة الرسمية فحسب ، فلقد لبث من عمره سنين
لا تحس مصر شيئاً مما ظهر له من خطر في أواخر ذلك العهد ...
شهدت مصر في هذا الطور جلائل الأعمال ومظاهر
الاستقلال ، كما شهدت عوامل البلى وعناصر الانحلال . شهدت
يد التعمير تبعث الحياة والنشاط والقوة في العاصمة وعلى صفحة
الوادى ؛ وشهدت يد التخريب تهوى بممولها في غير هودة
أو رحمة فتزلزل البنيان وتقوض الأركان. شهدت العظمة الشاغرة
والثروة الباذخة وشهدت الذلة المستخذية والفقر المستكين ؛ شهدت
نوازع الاستبداد وشهدت دوافع الحرية ؛ شهدت مواقف البطولة
والصدق ؛ وشهدت مخازي الدس والبهتان ... شهدت مصر
ذلك كله وشهدت زيادة عليه مثل ما تشهد الفرنسية بجمعت عليها
الدنائب وأوهنها طول الدفاع والجلاد

أراد إسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه الكمال ،
فلن يحمل بمصر وهو واليها أن تكون قطعة من أفريقيا ، ولا أن
تكون جزءاً من تركيا ، ولن يهدأ له بال حتى تنسب مصر إلى
أوروبا ، وحتى تحطم الأصقاف وتطرح عن عتقها نير الاستعباد
لم يمض من عهد هذا الأمير القذاثنا عشر عاماً حتى غمر مصر
فيض من الإصلاح ، ونهياً لها من أسباب الرق ما لم يكن ليتهياً
مثله في أقل من قرن إذا سارت الأمور سيرها العادى ... ففي تلك
الفترة الوجيزة وصل بين البحرين وشقت الترع الطويلة تحمل
إلى أنحاء الوادى من مياه النهر وغربته ما يدرأ عنها رمال الصحراء .
ومدت سكك الحديد وأسلاك البرق ، ونظم البريد ومهدت السبل
وعقدت الجسور ، وأصلحت الموانئ وأقيمت المناظر ، وشيدت
المصانع وافتتحت دور العلم للبنين والبنات وعنى بالتحف

وفي تلك الفترة تقلص نفوذ السلطان ، وأحاطت برالى مصر
مظاهر السيادة فلقب بالخدو وبميج له بمنح الألقاب ، وأطلقت

عن حكم مصر وسياسة مصر ، وما على نظاره إلا أن ينفذوا ما يأمرهم به دون أن يكون لهم فيه رأى أو تكون عليهم من جرائه تبعه ؛ ولم يك ثمة فرق بين حبيب إسماعيل وخزينة مصر ، ولذلك كانت سلطته المالية أعظم من سلطته الإدارية إن صح أن كان بين السلطين تفاوت ...

هذا كله حتى لا سبيل إلى إنكاره ، ومن أجله يحفز وزر شريف وتقل ملامته ، ولكنه لن يعنى من ذلك الوزر إلا أن غيل فنتحيز أو أن نذكر بعض ما بذله شريف من جهود جارية فيما بعد في مقاومة نفوذ إسماعيل ومعاربة طفيان الأجانب فيحملنا ذلك على تنامي موقفه في تلك الفترة التي غلب على طبعه فيها الهدوء والرضى ... على أننا لا نسيغ هذا ولا تطاوعنا النفس على ذلك . والواقع أن هذه الفترة من حياة شريف فترة سكوت لا يتفق وما جيلت عليه نفسه من شجاعة شهد له بها حتى خصومه ، فهل كان مراد ذلك إلى ما كان من إذعان مصر نفسها واستسلامها ؟

يخيل إلى أن ذلك أقرب إلى الصواب . فلقد كان رأى العام في ذلك الوقت أعنى مدى الاثنى عشر عاماً الأولى من حكم إسماعيل لا يزال في مرحلة تكوينه ، ولذلك لم يكن للشعب نفوذ إلى جانب نفوذ إسماعيل وجاهه ، فجلس شورى النواب الذى أنشأه الوالى والذى أولاه شريف حظاً كبيراً من عنايته ونشاطه ، كان لا يملك حق محاسبة الحكومة ؛ وكانت البلاد محرومة من الصحافة الوطنية ، خالية من الأحزاب السياسية ؛ وكان المعلمون من المصريين منصرفين إلى المناصب الحكومية يتقدمون بالزنى إلى إسماعيل وحكومته . ولقد أدى الانتخاب لمجلس الشورى إلى حرمان المجلس من هذا العنصر لو أنهم أرادوا أن يتجهوا إليه ...

وعلى ذلك فلو أن شريفاً تحرك حركة قومية في ذلك الوقت لما هزت حركته النفوس ، كما راحت تهبها حركته فيما بعد حين أفاق رأى العام على تدخل الأجانب في شئون مصر ، وحين ظهرت فيه عناصر لم تكن موجودة من قبل ، كدعوة جمال الدين التى أومضت في ظلمات ذلك العصر ، وكظهور الصحافة واهتمام التملين بقضية البلاد المالية ، وغير ذلك من أسباب البعث والنهوض ... عندئذ آن لشريف أن يخطو ، فكأنما كان قبل خطواته الوطنية في مرحلة الإرهاص ، شأنه في ذلك شأن كثير من الزعماء من قبله ومن بعده . وما أعظم الشبه في ذلك بين سعد وشريف ! فهذا سعد جبار هذا الوادى وزعيم أبطاله ومفخرة أجياله ، ظل في الفترة الأولى من حياته ساكناً لولا ما كان من آثار قلمه

يده فأصلح القضاء وأدخل على النظام الإدارى كثيراً من الإصلاح وفى تلك الفترة سارت القاهرة لتبديل حياة بحياة ، ومظهراً بمظهر ، فتخلص ما وسعها الجهد من أفريقيا ولا تنى تقرب من أوروبا ، وراح الخديو العظيم ينشر فيها من مظاهره ما جعل أعماله في هذا المضمار من عجائب القرن التاسع عشر ، وما برحت القاهرة طول عهده غاصة « بالملونة والأحجار » تلك التى كانت هوى الخديو ومصرة فؤاده

ولكن إسماعيل وأسفاه أنفق في سبيل ذلك المجد ما زاد على خمسين مليوناً من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء . يذكر ... ولذلك لم يلبث أن رأى مصر التى أراد أن تكون قطعة من أوروبا تساق على رغبة لأن تكون ملكاً لأوروبا ! فن أوروبا استبدات تلك الملايين ؛ ولا عجزت عن دفع دينها كانت رهينة لتلك الدين . أين كان شريف حين أخذت مصر في سياسة الاستدانة ؛ وكيف فاته وهو الأريب الحاذق ما كانت تبيت إنجلترا من غدر لاقتناص مصر ؟ أو لم ير أنها كانت تقيم من أموالها حول الوالى شبا كأحكمت نسجها يد المكر ، وبلفت في سترها الرؤوس الماهرة والقلوب النادرة ؟

كان شريف ناظراً للخارجية كما سلف أن ذكرنا ، فلما تم لإسماعيل الأمر أضاف إليه نظارة الداخلية ، فهو يعرف شريفا معرفة خبرة ووثوق إذ كان له زميلا في الدراسة ؛ وبقى شريف بدير المنصبين متمتعاً بثقة إسماعيل وعطفه ، خليقاً بما نال منه من تكريم ، وأى تكريم . كان أعظم يومئذ من أن يقيمه الوالى نائباً عنه حينما رحل إلى الآستانة عام ١٨٦٥ وما كان إسماعيل ليفعل ذلك لولا أنه كان يرى شريفاً أكثر الناس ولاء له

على أن شريفاً لم يك يملك غير النصيح في عصر كذلك العصر وتلقاه رجل كإسماعيل تنامى إليه السلطان والبأس حتى ليستنكف أن يذعن للخليفة ، فيسمى ما وسعه السى لتطلق يده في شئون مصر كلها وبخاصة في عقد القروض

ولكن هل نصيح شريف لإسماعيل كما كان خليقاً أن يفعل ؟ لو أنه فعل ذلك لجاء ذكره فيما جاء من أخبار ذلك العهد الذى كثرت فيه الأقوال . ومهما يكن من الأمر فقد ظل شريف فيما اختير له من المناصب لا يعارض ولا يفضب فيستقيل ... وتلك مسألة أخرى ندها على شريف ونأخذ بها ...

يبعد أننا من جهة أخرى نمود فنذكر أن مبدأ المسئولية الوزارية لم يكن قد قام في مصر بعد ؛ فإسماعيل هو وحده المسؤول

وجاء الموظف ولكنه زود من جانب حكومته بأوامر، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يحقق ويدقق ثم يرفع تقريراً عما رأى ! وما لهذا أراحه إسماعيل فما كان يريد والى مصر إلا أن يكون هذا الموظف معيناً له في إصلاح مالية البلاد

ورفع « كيف » التقرير إلى حكومته ! وجاء دور دزرائيلي فأعلن البرلمان الإنجليزي في غير تردد ولا استحياء أنه يرغب عن نشر التقرير لأن الخديو رجاه في ذلك. ولعمرك الحق ما رجاه الخديو ولا أشار إلى ذلك من قريب ولا من بعيد ...

ذعر الدائثون ، وهبطت أسهم مصر كما يقول رجال المال ، وتلقى الخديو الصدمة العنيفة ممن أمل على يديهم الإصلاح وقال في مرارة وغیظ : « لقد احتفروا لى قبرى » وهى كلمة موجمة جامعة ، فبعد هذا التصريح من جانب دزرائيلي سيكون الطوفان . وما كان في تقرير كيف إلا أن مصر « تشكو مما ينتشر في الشرق من أمراض منها الجهل والإسراف والاختلاس والإهمال والتبذير وأنها تشكو من كثرة النفقات التى سببها محاولة إدخال مدنية الغرب والنمى ترتب على مشروعات لا تجدى نفعا ، وعلى مشروعات نافعة ولكنها تنطوى على الخطأ » . بل لقد ذكر كيف في عبارة صريحة : « إن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون إذا أحسنت إدارة البلاد » . ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التى كثيراً ما تسخر مما تواضع عليه أغرار الناس من قواعد الخلق والاستقامة !

لم تستطع مصر أن تفلت من دائها فكان لابد من إذعانها لمراقبة مندوبيهم وتآلف في مصر « صندوق الدين العام » فكان حكومة صغيرة من الأجانب داخل حكومتها ؛ ثم وافق الخديو مكرها على تعيين مراقبين أجنيين أحدهما إنجليزى للدخل والآخر فرنسى للصرف ، وعين تبعاً لهذين موظفين من الأجانب برواتب ضخمة ؛ وعنى الخديو حقاً بالإصلاح يومئذ ولكن يد القدر كانت من ورائه تبيت الارتباك وتنصب الشباك

وقبل الخديو فيما قبل على رغبة تأليف لجنة من الأجانب سميت « لجنة التحقيق العامة » جعل على رأسها دلييس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة ، فما كادت تعمل حتى اصطدمت ، وكان اصطدامها في بدء عهدها لسوء حظها بالرجل الذى يتحفر ويتحين الفرصة ليثب . ومن يكون ذلك الرجل في تلك الأيام العصية غير شريف ؟ استدعته اللجنة ليمثل أمامها لتستفهمه ، فتعاطفه الأمر فأبى ، فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها ، ولكنه خشى

ونفثات روحه . فلما سارت الحوادث سيرها ، وتهايت البلاد لا تنفاسة تنفس عنها بعض ما بها تلفت القلوب ودارت الأعين فلم تستقر إلا عليه كأنما ألهمت ذلك إلهاماً ! ... وإنك لترى من أوجه الشبه غير هذا كثيراً بين سعد وشريف فيما نقص من سيرته كان لا بد للسألة المالية أن تنتهى إلى ما انتهت إليه من تدخل الأجانب في شؤون مصر الداخلية ، ولكن هذا التدخل لم يكن شراكه كما اعتاد المؤرخون أن يسوروه ، وحسبنا مما انطوى عليه من عناصر الخبر أن قد استيقظت على ضجيجيه وصخبه مصر ، فانبعثت القومية المصرية ومضت تنفض مصر عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما تبدى في ثورتها على نابليون وكليبر ، ومما ظهر من آمالها ومشيتها يوم ذهب أبناؤها وعلى رأسهم عمر مكرم والشرقاوى يلبسون محمد على الكرك والقفطان دون أن يرجعوا فيما فعلوا إلى السلطان ...

تراكت الديون على مصر حتى أنها لم تكن تقل عن تسعين مليوناً من الجنيهات في عام ١٨٧٥ م . فن ديون سائرة كانت في ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معانى القين ، إلى ديون ثابتة فيها أوضح معانى الشره وأقبحها من جانب الدائنين ، إلى قروض داخلية لجأ إليها « المقتضى » ذلك الذى قام على شؤون مصر المالية ، فكان في ذاته عبئاً فوق أعبائها التى ناءت بها ، ومن تلك القروض الدالة على شدة الارتباك والخلل دينا المقابلة والرزنامة ...

عندئذ تحركت إنجلترا نحو هدفها ، وكانت أولى حركاتها في هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسهم القناة ، اشتراه دزرائيلي رئيس وزرائها بشمن بخس ! ولم يرده عن ذلك عظمة البرلمان يومئذ . وكيف يفوت دزرائيلي وهو الذى يعرف الفرص ويفرق كيف يقتنصها ، كيف يفوت ذلك الداهية أمر كهذا الأمر يجعل مراكز بلاده في القناة كركز فرنسا أو أعظم ، وبصحيح خطأ وقعت فيه إنجلترا ألا وهو استهانتها بالشروع أول الأمر ظناً منها أنه لن يتم ، ثم تراخى عن شراء الأسهم بعد ذلك رغبة في إحباطه ولكن مصر بعد بيع أسهمها لا تزال في حاجة إلى المال لتدفع به بعض ما جره عليها المال من وبال . وأنى لها المال بعد ذلك كله ؟ وأية دولة تعد إليها يدها ؟ إذا فلتفكر مصر في الإصلاح ثم فلتفكر إنجلترا في اصطياذ القريسة !

طلب الخديو موظفاً إنجليزياً يدرس لها شؤون مالها ويصلح ما يراه من أوجه الخلل ؛ فتلكت إنجلترا لأنفسها عن دها ، وجشع تحب أن تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أعين غيرها